الوطن ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر

الأستاذ محمد الصالح خرفي

جامعة جيجل

الوطن ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر: نتيجة لإعراض الشعراء عن الأطلال والتي ما هي في الحقيقة "إلا شعر في الحنين إلى الوطن والديار، مختلط بالحب والعواطف التي تشهدها هذه الأطلال "[1] برزت أمكنة أخرى بديلة تشبث بها الشعراء قديما وحديثا، فكان الوطن/ المكان الموضوع، وبرز للوجود شعر الوطن بعد الانتقال من حياة الترحال والبداوة إلى حياة الاستقرار، وتغير نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فأصبح الوطن هو محور النص الشعري، المبتدأ والمنتهى، بل إن الشاعر هو الوطن يعبر بلسانه عنه ويحلم مكانه، ويؤسس له وفق رؤيته الفكرية والسياسية، ويأخذ منه ويعطيه.

والراجع إلى المتن الشعري العربي القديم، يلحظ أن الوطن لم يكن موجودا بهذا المفهوم – المتعارف عليه اليوم–، حيث كان المكان/الوطن، مفردا بصيغة الجمع، يهيج الأشواق، لما فيه من ذكريات بل قد تتحول كل الأمكنة وطنا للشاعر، من كثرة ترحاله وعدم استقراره في مكان، واحد فتتساوى جميعها في قلبه، وتسكنُه لماله في كل واحدة منها من ارتباط.

وقد تعددت الصيغ اللغوية المتعلقة بتيمة الوطن، فهو:المنزل والدار والبيت والبلد والموطن والأرض . . . وكل صيغة لها دلالاتها وأبعادها. فالوطن يشير إلى القطر، وإلى القوم والقارة والكون.

الوطن يشكل ظاهرة عامة في شعرنا العربي القديم والحديث من المشرق العربي إلى المغرب العربي . و قد زادت حدة الاهتمام به مع الهجرات الجديدة وانتقال بعض الشعراء العرب للعيش في البلدان الأوروبية والأمريكية، وظهور حركات التحرر، والحركات القومية في البلدان العربية، وتحرر الكثير من الشعراء من السلطة السياسية الحاكمة .

1- فريد جحا: الحنين إلى الوطن في شعر المهجر. المطبعة العربية، سوريا، ط1، د ت، ص8.

فـ "الوطن فكرة غافية، لا يوقظها سوى الشعراء بالتحنان والغناء، وإذا كان الإنسان يرتبط شعوريا بالمكان الذي ينبت فيه، وتمتد فيه جذوره فإن توسيع دائرته ليشمل رقعة عريضة تتمثل فيها خواصه الطبيعية والبشرية وتعمق وعيه الفطري به، يعد نموذجا لصياغة المثال والتعلق به. و هي صناعة شعرية في صميمها حيث يوسع الإنسان عند ممارستها، أن يرى ذاته وينشد أحلامه، ويشكل انتماءه للعالم الصغير، وهو لا يفعل كل ذلك إلا إذا تلبس بحالة شعرية كأن يصبو إلى مرابع لهوه وطفولته، أو يتوجع بتذكر ماضيه ومعالمه. . و في كل ذلك ينشدون توليد صورة مثالية للوطن بالتوافق معه أو الخلاف في، وهي التي تحفز قسماته في ذاكرة الأجيال"[1]

لقد تعددت دلالات الوطن في النص الشعري، وهذا التعدد ناتج عن اختلاف التوجهات الفكرية والرؤى السياسية للشعراء، إذ يستحيل أن ينتج النص دون ظلال و"هذا الظل هو قليل من الأيديولوجيا، وقليل من الذات"[2] وهذه الظلال لا محالة واقعة في النص الشعري سواء أظهرت للقارئ أم خفيت .

فالوطن في الشعر الجزائري في السبعينيات يختلف من شعر أحمد حمدي وعبد العالي رزاقي وحمري بحري إلى شعر مصطفى الغماري ومحمد بن رقطان. . فهو عند أصحاب التوجه الاشتراكي مرتبط بالفقراء والكادحين والثورة. . ولا يتعدى الحدود الجغرافية التي رسمها الاستعمار الفرنسي، بينما هو عند الشعراء الإسلاميين من السبعينيات إلى اليوم فضاء أوسع يمتد من المحيط إلى الخليج، وهي حقيقة بارزة في المتن الشعري، ويجب الإقرار بها لأن " قصيدة الوطن قد بحثت على أيدي الشعراء الإسلاميين المعاصرين في التعبير عن همّ الإنسان المسلم الذي يرجو أن يشكل مطامحه وأحلامه وفق الإسلام، ووفق وطن عزيز، كما أنها خرجت بالوطن من تلك التعابير الرومانسية الحالمة التي شهدها الشعر العربي المعاصر لفترة طويلة من الوقت والتي حولت الوطن إلى موضوع للغناء والطرب، وأوقفت الإنسان المسلم على حقيقة مدهشة، وهي أن الوطن الجغرافي لا خير فيه إذا لم يعانقه وطن روحي، ولذا نرى الشعراء وهم يقفون ضد هذه الأقاليم الممزقة، بصراحة عارية تماما وبتحد واضح، وفي الوقت نفسه

1- صلاح فضل: تحولات الشعرية العربية. دار الآداب، لبنان، ط1، 2002، ص 55 .

2- رولان بارت: لذة النص. ترجمة منذر عياشي، دار الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 1992، ص 64.

يطمحون إلى وطن إسلامي كبير وقد ألحت عليهم هذه القضية إلحاحا كبيرا لأنها آخر الأمر قضيتهم الشخصية"[1]. وقضية أمتهم، والذات لا تنفصل عن الجماعة، والنص الشعري مرتبط بالسياق الحضاري العام.

وعلى هذا، فلا عجب أن نجد أن وطن الشاعر لا حدود له، يرسم تضاريسه بلغته الشفافة ويعانق فيه روح الحياة، ويسبغ عليه أحلامه التواقة لغد جميل، متجاوزا حدود التاريخ والجغرافيا، إلى آفاق رحبة، في علاقة حب لا متناهية، ليس عند كل الشعراء وإنما عند المتميزين شعريا فقط، والمبتعدين عن الإسقاط السياسي والإيديولوجي الواضح.

فللوطن نصوصه المتنوعة، وللنصوص أوطانها المتعددة "و هذا لا يتناقض مع عالمية الفضاء المفتوح وإنما يتناقض مع التوحيد القسري[الذي]يقتل نكهة أمكنة البُنى الصغرى ويلغيها أحيانا، إن نكهة الأمكنة وتعدُديتها وتنوعها عبر مجموعات متحدة هي التي تضفي على وحدة العالم طابع الفني والثقافي"[2]لأنّ الوطن هو الهوية وليس الخريطة الجغرافية، وشهادة الميلاد لا تكفي للانتساب إليه، هو المنفى في الداخل، والأمل في الخارج، والبؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة، فحبل الودّ موصول بالرغم معرفة الإنسان، والذات المتجذرة فيه، هذه المعرفة قد تتطلب زمنا طويلا للوصول إليها لتحقيق الذات في رأي الشاعر يوسف وغليسي:

زَمني في منأى عن كلّ الأزمانْ. .
ما أغربَني في وطنٍ لا يَتَشَبّهُ بالأوطانْ.
فاليومُ الواحدُ فيهِ مثلُ ألُوف الأيامْ
وإذنْ . . .
كم يلزمني من عمرٍ في وطني

1- عمر بوقرورة: الاغتراب في الشعر الإسلامي المغاربي المعاصر 1960-1990. رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة قسنطينة، 1993-1994، ص 275 .

2- عزالدين المناصرة: جمرة النص. منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، دار الكرمل للنشر، ط1، 1995، ص 326.

حتى أصبحْ إنسانْ ؟![1]

الغربة المكانية تحيط بالشاعر، فهو غريب في وطنه واليوم الواحد في هذا الوطن مثل ألوف الأيام، يتحول الزمن عنده من مفهومه المادي إلى مفهومه النفسي، ويبقى الشاعر يتساءل عن الزمن الحقيقي الذي يلزمه ليعود لإنسانيته، ويدرك ذاته الحقيقية، فالنص يكشف لنا عن مأساة هذا الوطن بطريقة غير مباشرة.

بل إن الوطن الكلي-الجزائر- الذي يجمع الأجزاء المكانية يتحول عند الشاعر حمري بحري إلى المكان الأوحد، والقصيدة، والمنفى، والنشيد، وهذا ينم عن خلفية سياسية واضحة لذا الشاعر الذي آلمه ما يجري في الوطن:

لم أكن أعرفُ يا جزائرُ أنّك منفايْ

وأنكِ النشيدُ الوحيدُ في دمي

وأنا الناي

لم أكنْ أرى ما يُرى

فالحقيقةُ حقيقتانْ

واللحظةُ لحظتانْ

والموتُ في عشقكِ عشقان[2]

فالجزائر هي المكان الوحيد للشاعر، وهي القصيدة الجميلة التي كتبها، والبداية والنهاية، كل شيء من غيرها مستحيل، فالشاعر تحول إلى المكان إلى الوطن ليجد نفسه :

ما المكانُ إلا أنتِ يا جزائرْ

ما القصائدُ الجميلةُ إلا أنتِ يا جزائرْ

1- يوسف وغليسي: تغريبة جعفر الطيار منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2000، . ص 66.

2- حمري بحري: قصيدة مديح رياس البحر. جريدة الشروق اليومي ع 17/211جويلية 2001، ص15.

أنتِ مبتدايَ ومنتهايْ
وكلّ شيءٍ من دونكِ مستحيلْ [1]

وهذا التداخل والحميمية الموجودة بين الشاعر والوطن ناتج عن معرفة أكبر بالمكان ومعاناة حقيقية، وخوف من فقده مثلما فقدت بلاد الأندلس من قبل، فسقوط القلاع يتوالى، وما على الشاعر إلا التشبث بكل القلاع، فما بالك إن كانت القلعة وطنا بأكمله.

فالشاعر الجزائري في عز أزمة التسعينيات أمّمَ مشاعره الذاتية، وكان بديله قصيدة الوطن، لأنه الهاجس المثير والدم الذي يسري في العروق – مثلما كان الحال عند الشعراء في ثورة التحرير –، وأبرز الشعراء الجزائريين الذين كرسوا ديوانا بكامله لهاجس الوطن وهمومه نجد الشاعر عز الدين ميهوبي في ديوانه "ملصقات" حيث أن "الملصقة الميهوبية تتميز بكونها تجربة لكتابة البيان الشعري الذي يفضح الواقع، وتعرية لواقع يريدون تشكيله وفق مصالح ذاتية . . لذلك نراه يجعل مصلحة الوطن فوق كلّ المصالح، ويجعل حب الوطن في أعلى مستويات الحب"[2] و قد هيمن المكان الكلي–الوطن– على الملصقات؛ إذ هيمنت عبارة "في بلادي"، الدالة على الوطن، على كل الملصقات التي اعتمدت السرد الشعري والقصر واللمحة الدالة.

وقد كانت الأحداث الدامية التي شهدها الوطن — الجزائر – في التسعينيات، دافعا هاما لشعراء الجزائر الذين أرّخوا بطريقتهم الخاصة، لما جرى من أحداث، تأريخ أخذ من التاريخ، لكن الشاعر لم يلتزم فيه بالحرفية، وكتب الشعراء قصائد تحمل دلالة الفوضى والعدمية واللا أمل.

فالشاعر ميلود خيزار مثلا ألصق بالوطن–جراء ما حدث–كل الصفات التي توحي باليأس والعدمية، فهو نهر عسل يعبر الحزن، وباقة ورد في كفن. . . ليعطي الصورة القاتمة والحقيقية لما جرى :

1– المصدر نفسه. ص15.

2– عز الدين ميهوبي: الملصقات (ديباجة أ . يوسف وغليسي). منشورات أصالة، سطيفنط1، 1997، ص 13/12

وطني نهرُ عسل،
يعبر الحزن . . لصفصاف الوطنْ
وطني . . . سِرْب حجلْ
يملأُ الأُفْقَ،
و يحتلُ فضاءات العَفَنْ !
وطني باقةُ وردٍ
في كفنْ
وطني . . دوارُ شمس يشتعلْ
وأغان تملأ المنفى حنينا
وجنونا . . . وشجنْ [1]

كما حملت القصائد المكانية الوطنية، دلالة التيه، والفقدان، بعدما استبيح كل شيء ولم يبق إلا الوطن الجريح، يرجع إليه الشاعر الجزائري ليستريح وليقر بالفاجعة، وهو في رحلة البحث المستمرة لاسترداد الوطن مثلما فعل الشاعر علي ملاحي:

نحنُ اليتامى . . . والوطنْ
في كفِ سادتِنا وثنْ،
من أين لي أجدِ الوطنْ . .
يا موطني قد علموكَ العشق في
كلّ الجهات فما كسبتَ
من الهوى إلا مصيرًا شاردًا

1– واسيني الأعرج: ديوان الحداثة. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، د ت، ص 208.

ماذا تبقى من أصابعٍ ترشيها كي

ترى الدنيا نشيدًا واعدا ؟

يا موطني سد الشبابيك الطرية

وارتقبْ . .

كن شاهدًا

ثم اعترفْ . . أنتَ البلادُ بلا بلادْ [1]

فالشاعر يتيم بعد فقدان الوطن، لأنه هو الأب والأم، وكل شيء، ويتيم وهو يرى الخراب في كل مكان، وتجار السياسة يحولون الوطن إلى قطعة أرضية تباع علنية، فلم يجد ما يقاوم به هذا اليتم سوى تسجيل شهادته الشعرية .

ولا يختلف الشاعر مصطفى محمد الغماري عن غيره من الشعراء الجزائريين في لغة الضياع والبحث عن الأمل المفقود في أن تعود الأيام إلى سالف عهدها، وفي أن يجد الوطن البديل المغاير للوطن الموجود واقعا، والذي كان فيما مضى حجة لكل ثورة على الظلم والطغيان، فـ"يختفي الصوت الحماسي الذي ألفناه في قصيدة الوطن التي كتبت أثناء الثورة التحريرية، ويبرز بدله همس الهزيمة المؤيد للإنسان الفاقد للذات. "[2] والذي انهارت كل القيم فيه و لم يبق أي شيء، إلا الحزن والدمار والخراب . فيصبح الشاعر مصطفى محمد الغماري مثل غيره، يكتب عن ذكرى ماضية علّها تعود، ويعود الوطن كما كان عليه وطن الأحرار والأشراف والجهاد في زمن نوفمبر الأخضر، معتمدا في ذلك على المرجعية التاريخية، والمرجعية الثورية للمقارنة بين الأمس واليوم، وفي هذا من الأبعاد السياسية والوطنية ما فيه، فالارتباط واضح، والنص الشعري يكشف عنه بجلاء :

أحببتُ يا وطني فيكَ جهادَ الجدودْ

في كلّ دربٍ دمٌ في كل شبرٍ شهيدْ

يموتُ كلّ هــوى إلا هواكَ الجديــدْ

1- المصدر نفسه . ص 303و ص311/310.

2- عمر بوقرورة: الاغتراب في الشعر الإسلامي المغاربي المعاصر. ص 257.

أراه ملءَ الرّبـــا أراه ملءَ الحدودْ
أحببتُ يا موطني تكبيّر أحـــرارِ
والجرحُ لما ارتوى بالنورِ والـــنارِ
يَفُكّ عنك الأسى يا غربةَ الـــدارِ
حتى رأيتُ العدى أشلاءَ إعصارِ [1]

ولأن ذلك الزمن — زمن الثورة – قد ولى، لم يبق إلا الشعر دليلا عليه، وسبيلا جديدا لاستعادته، وتثبيته في ذاكرة الأجيال، وهاهم الشعراء يحيون ذكرى الوطن ويبرزون تمسكهم به عندما باعه الساسة.

وقد اتخذ شعراء الجزائر المعاصرون، نصوص شعراء الثورة مرجعا لهم ينطلقون منه للإضافة، فالشاعر عبد الله حمادي يتناص مع الشاعر مفدي زكريا في "إلياذة الجزائر"، إيقاعا ولغة، في نصه "الجزائر" المتضمن في ديوانه "البرزخ والسكين"؛ فحمادي المتشبع بحب الوطن والمتشبث بالأرض الجزائرية، يصرح بذلك شعريا، وفي تصريحه الشعري لا نجد اختلافا بينا بين نصه ونص الإلياذة :

جزائرُ يا قلعةَ الثائـــرينْ
ويا قصةَ الخلدِ والخالدينْ
جزائرُ يا موطنَ المبتغـــى
ويا جنةَ الخُلدِ والمنتهى
ويا موردًا سلسبيل الظلال
ويا نشوةً من أريجِ الكمال
ويا ثورةً في سجل النضال

1- مصطفى محمد الغماري: أغنيات الورد والنار. ش ون ت، ط1، 1980، ص 196/195.

ويا فتنةً كُلّلت بالكمالْ [1]

بل إن الكثير من قصائد الشاعر عبد الله حمادي وخاصة في القسم الأول من الديوان – كتاب العفاف– حملت همّ الوطن، وبرزت مرجعيتها السياسية والوطنية بوضوح؛ فقصيدة "وطن" لحمادي ـــ **المشكلة من سبعة عشر (17) بيتا شعريا** –مثلا تكرر فيها لفظ الوطن سبع عشرة (17) **مرة، أي في كل بيت وطن، مما يحمل دلالة الهيمنة على داخل الشاعر وخارجه،** المتمثل في النص **الشعري والبارز لغويا ليس من** أجل الجمال الشكلي، وإنما ليبرز ما بداخله، واللغة لا تستطيع في أغلب الأحيان ترجمة المشاعر والأحاسيس، وما يبرز على سطح النص هو جزء من الكل فقط .

وهي سمة ملازمة للشعر الجزائري المعاصر، مثلما نجدها عند الشاعر عبد الله حمادي نجدها عند الشاعر عز الدين ميهوبي الذي اعتمد هو أيضا على نصوص شعراء الثورة–خاصة نصوص مفدي زكريا–، فالثورة هي المرجع، والوطن هو الحب الأبدي المتجذر في كل القلوب نتيجة هيمنته على الشاعر:

جزائرُ يا نبضةً من شموخي ويا بسمةً طلعتْ من دُجاي
جزائرُ يا نغمةً في فمي ويا ألقاً طالعاً من دمـــــي
ويا جـــنةً جئتُها فَرَحـــاً كطفل بأحضانِها يَرْتَمـــي
لكَ الحبُّ يا وطني فاحترقْ بقلبي وكُنْ دائمًا مَبْسَمِي [2]

فالجزائر هي النبض والبسمة والنغمة والألق والجنة. . و هي الحلم الذي بقي يراود جميع الشعراء، حلم لم يتعد الأمنية في أن يبقى الوطن موحدا متماسكا، وألا تؤثر عليه المحن والفتن، وصورته القدسية المطبوعة في الذاكرة، لن تتغير مهما حدث ويحدث، فكرس شعراء الجزائر بذلك دلالة الموت من أجل الوطن، وهي ميزة تجددت مع الشعراء المعاصرين مثلما رأيناها عند شعراء الثورة، فكل ما حل بالوطن من مكروه يبذل الشاعر نفسه من أجله ليبحر في غده القادم ويكون الجسر الذي يمر فوقه الوطن:

1– عبد الله حمادي: البرزخ والسكين. منشورات جامعة قسنطينة، ط03، 2001، ص19.

2– عز الدين ميهوبي: اللعنة والغفران. مشورات أصالة، الجزائر، ط01، 1997، ص 17/16.

تَبقى أيا وطني موجا لابْــحَارِي
نغمًا يرافقني في موكبي الساري
لحــنًا أردده عشقًا بأشعاري
من نبعك الحاني رويت إصْرَارِي
خُذْ صيحتي ويدي رُوحِي أيا بلدي
إنْ شاخ قلبي فهــ ذي بعده كبدي
واعبرْ فإني هنا جِسْرٌ لفجرِ غدِ [1]

فالشاعر يتوق إلى التوحد في الوطن وإلى الانصهار فيه ليغدو جزء منه، بل ليغدو الشاعر هو الوطن، والوطن هو الشاعر للدلالة على الحب الكبير له وعلى الاندماج الكلي في السياق العام للوطن، وهي سمة تكاد

تكون مشتركة حتى عند الذين كتبوا معظم قصائدهم في المرأة، إذ تتحول المرأة عندهم إلى وطن أو إلى وطن بديل، فالتوحد في الكينونة قاسم مشترك بين الجميع حتى ليصبح الشاعر هو الوطن، كما هو عند الشاعر يوسف وغليسي الذي استعار التجربة الصوفية ليعبر عن العلاقة القوية التي تربطه بالوطن:

أنا أنتَ . . و أنتَ أنا!
أهواك لأني منكَ،،
وأنتَ مني
روحُك حَلّت في بدني. .
أنا "حلاجُ" الزمنْ. .
لكنْ،،
ما في الجُبّةِ

1- بوزيد حرز الله: نص: سفر في روئ العائد، جريد الشروق الثقافي، ع8، 8 سبتمبر1993، ص24.

إلاك أيا وطني !. . [1]

وجدير بالملاحظة هنا، أن شاعرين مثل عز الدين ميهوبي وعبد الله حمادي أكثر اقترابا من صور الوطن التعبيرية التي ورثناها عن جيل الثورة، وكلّما ابتعدنا زمنيا عن زمن الثورة، كانت التجربة الفنية أكثر ثراءً؛ فحرز الله أكثر تحررا في حبّ وطنه، ووغليسي أذكى من الثلاثة في أداء هذا المعنى. وهذا يحيلنا على "دينامية" المكان الذي قلنا سابقا إنه يتغير من زمن إلى زمن، ومن شاعر إلى شاعر.

- ومن الدلالات التي اكتسبها الوطن أيضا، دلالة الخصب والنماء، حين يربط الشاعر الوطن بالمرأة فتصبح وطنا، ويضحى الوطن امرأة، فيحول الشاعر الوطن إلى حبيبة له يناجيها ويهدي لها التحايا، وأصبح من الشائع جدا في المتن الشعري المعاصر في الوطن العربي ككل، أن يحب الشاعر المرأة عبر جماليات وطنه، وأن يحب وطنه عبر جماليات حبيبته، يحن إليه كما يحن إليها ليجدد ذاته:

يا بلادي ويا حبـــيبةَ قلبي سامحيني حبيبتي سامحيني

ما عساني أقولُ في وصفِ حُبّي وبأي الفُنُونِ فلتعذريني؟

قسمًا في هواك ما خنت عهدي أبدَ العمرِ أو أسأتُ ظُنُـــوني [2]

فالوطن أنثى عند الشاعر الشريف بزازل وعند غيره، يتصف بالكثير من الصفات التي تشكل المكان البهي النموذج، وهذا لا يتنافى مع الشعر لأن" الشعر إذا لم يكن خطابا أنثويا، فهو ناقص في نسقه الإنساني وسيكون انحيازيا ومتعاليا وأنانيا" [3]فالبنية الشاملة للمكان هي الوطن والوطن في كل الحالات سيبقى أنثى مهما تعددت الصفات:

1- يوسف وغليسي: تغريبة جعفر الطيار . ص 61.

2- صلاح الدين باوية: العاشق الأكبر. دار الحفيد للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 1999، ص6.

3- عبد الله الغذامي: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف. المركز الثقافي العربي، بيروت، المغرب، ط1، 1999، ص88.

وطني طفلةٌ ساحرةْ،

عانقتْ حكمةَ الشعراءْ :

الأفقُ موكبُها . .

والحبُّ نشوتُها . .

والبحرُ موعدُها الآتي . . ![1]

فهو طفلة ساحرة لها من الجمال مالها، الحب نشوتها والبحر موعدها، تحمل البراءة والمشاعر الطفولية، التي تشكل جوهر الإنسان، وتركيز الشاعر الشريف بزازل على المنحى الطفولي في وصفه للوطن، إدراك منه بقيمة الطفولة وعدم تغيرها وبقائها في داخل الإنسان، وهي وجه الخير، والشر الذي حل بالوطن قام به الإنسان الكبير الواعي الذي غابت مشاعر الطفولة عنه.

بل إن الشاعر عثمان لوصيف يجعل من مدينة غرداية- الواقعة بالجنوب الجزائري - هي الوطن البديل، وصورة المرأة النموذج التي تتجلى في كل المدن الجزائرية من الشرق إلى الغرب، بل هي الجزائر الوطن، فتصبح غرداية –الولاية- عنده وطنا كليا يختصر عبره كل المسافات، ويلغي جميع الحدود، لأن الجزائر في الكل واحدة، وهي امرأة تجلت في المكان وحلت به مثلما تسمت غرداية على امرأة، فالوطن امرأة شَرّدت الشاعر، لها صفات أسطورية، تتقمص كل الرموز وتلبس كل المعاني:

صورة أنت لامرأة شرشت في عروقي وأخيلتي

امرأةٍ شردتني في كل مكانْ

إن مشتْ برعمت زهرتانْ

امرأةٍ تتزيَا بكل الصفاتْ

وتسطع في سحرِ كلّ النساءِ الحسانْ[2]

1- الشريف بزازل: بعوزتي وطن من ورد . -ديوان مخطوط-ص18.

2- عثمان لوصيف: غرداية. دار هومة، الجزائر، ط1، 1997، ص 79.

فالشاعر عثمان لوصيف يطارد خيالها في المدن الجزائرية الساحلية والصحراوية وفي الفضاءات الواسعة علّه يجدها، لكنه يحاول عبثا، لأنها كل مدينة جزائرية، أخذت من كل مدينة صفة من الصفات، فهي متعددة في الظاهر، لكنها واحدة في الجوهر:

كل يوم أطاردُها في المدائنْ
عبر شوارع وهرانْ
في تلمسانَ بسكرةْ
في الجبالِ وعبر الفلاَ
وهي في الكلّ واحدةْ

تتقمصُ كل الرموزِ وتلبسُ كل المعانْ[1]

وعندما ينشغل الشاعر الجزائري بتتبع الأحداث السياسية، ويرصد المتغيرات التي حصلت في الجزائر التسعينيات، فإن الدلالات والأبعاد التي يأخذها الوطن تصبح مرادفة للحزن والخراب والسواد لفظاعة ما جرى، وجميع الشعراء يشتركون في هذه الدلالات والأبعاد بتفاوت ملحوظ حينا، وغير ملحوظ حينا آخر .

كما يمكن تمييز جملة من السمات التي تميزت بها قصيدة الوطن في المتن الشعري الجزائري المعاصر، تبرز بجلاء في العديد من النصوص الشعرية، أبرزها نغمة الحزن والألم التي تصادفك في كل حرف، وفي كل بيت شعري، على ما آل إليه الوضع في هذا الوطن، فالشاعر مالك بوتيبة لم يجد أمامه إلا الموت والرصاص والقتلة:

من سنين وهم يطلقون الرصاصْ
ومن سنوات ونحن نموتْ
تعبنا من الموت نحنُ، ولم يتعب القتلة!
ولم يستريحوا

1- المصدر نفسه ، ص. 101.

كي نستريحَ من الهرولةْ! [1]

والشاعر فيصل الأحمر لم ير إلا المتاريس والحواجز والفراغ القاتل للمكان، لأن ما حدث أكثر من أن يوصف، وما حدث هجـــّر الإنسان والحيوان على حد سواء :

كل شيء تناءى

وها أننا في جزائر مهجورةٍ وأماكنَ مُقْفَرةْ

ومشاعرٌ مقهورةُ وأماني مدبرةْ

وفراغٌ يمزّق فيه الرتابَة فخ

كل شيء على هامش

والمتونُ بها حركاتُ الملوكْ

تجاورُها هفهفاتُ الغباءْ

تتمتمُها سكناتُ الأميرينْ

فوق أراضي تمزّقها نُصَبٌ وحُدُودْ [2]

والمكان هنا دال من جهتين، الأول هو المُعرب عنه مباشرة، والمعبّر عنه بالفراغ والرتابة. . والثاني هو المكان الافتراضي الذي ينـــزلق إليه الشاعر بطريقة غير محسوسة؛ ذلك هو الكتاب، فالبلاد/المكان يتحول إلى كتاب مقسم إلى فضائين: متن وهامش، فيجد الشاعر نفسه مع القارئ وعامة الناس، و"كل شيئ" على هامش فوقه متن مليء، مثلما هي حال الدنيا والتاريخ منذ بدء الخليقة- المليء بأخبار الملوك والمشاهير ممن تغيّر أخبارهم وجه المكان الحقيقي الذي يراه الشاعر مليئا حد التمزق بالنصب والموانع-.

أما الشاعر عبد الوهاب زيد وغيره من شعراء مرحلة التسعينيات، الذين تضمخت لغتهم بسمة الحزن، فقد أخذ الوطن عندهم دلالة الضياع واللامعنى واللاجدوى، لأن السلام قد

- مالك بوذيبة: ما الذي تستطيع الفراشة أن تحمله . ص 95

- فيصل الأحمر: العالم تقريبا. منشورات إبداع، الجزائر، ط1، 2001، ص. 15.

غاب وذهب الحمام وانتشرت العناكب التي لم تصبح هي حامية المكان بل أصبحت رمزا للخراب ولفراغ المكان:

إنني لا أنامْ
دُون كل الأنامْ
لا لشيء سوى
أنني من بلادٍ
تحب العناكب لكنّها
لا تحب الحمامْ [1]

وبمقابل هذه اللغة الحزينة، والنغمة اليائسة شاعت- على طرف النقيض- دلالة الفرح والغد المشرق، والأمل في يوم جديد، ووطن الانتصار والنهوض من الكبوة مع الجيل نفسه من الشعراء، وكأن الشاعر بقلبين اثنين ؛ قلب يسيطر عليه الحزن وقلب يبشر بالفرح، وهذا نجده بكثرة عند الشاعر عز الدين ميهوبي عبر قصائده في ديوان" اللعنة والغفران" حيث حول السقوط إلى نهوض وانتصار:

إن الجزائرَ من دمعي ومن دمكم
وألفُ ألفُ شهيدٍ باسمًا . . سقطَا
إن الجزائرَ يا أحبابُ. .
ما انكسرتْ
لكنّها انتصرتْ
والعقدُ ما انفرطَا[2]

1- عبد الوهاب زيد: ذاكرة الجرح والأمنيات –ديوان مخطوط –.

2- عز الدين ميهوبي: اللعنة والغفران . ص 14.

فالشاعر عز الدين ميهوبي في كل نص يكتبه، يبرق للقارئ بهذا الأمل، الذي يجب علينا أن نؤمن به ونسعى إلى تحقيقه، وإن لم نستطع فيكفي الأمل، لأنه طريق الانتصار والعودة من جديد، لأن المنهزم من الداخل لا يستطيع أن يستمر في الحياة :

سَتطلع رغم المواجعِ
شمسُ الوطنْ
فلا تيأسنْ
ستبقى الجزائرُ شامخةً مثلكم
رغم أنفِ الفِتَنْ
وسيكبرُ فينا الوطنْ [1]

لقد اختلفت دلالات الوطن في الشعر الجزائري المعاصر من شاعر إلى آخر، ومن نص إلى أخر، لكن ما هو متفق عليه هو هذا التجلي الوطني والمتابعة الشعرية للأحداث السياسية التي مرّ بها الوطن– الجزائر – بوعي تام، ورؤيا فكرية منسجمة مع توجهات الشعب الجزائري، ومع الآمال المعلقة على شعرائه ومفكريه، حيث سيحاسب التاريخ الشعراء على ما قدموه للوطن، وما كتبوه فيه.

وستبقى النصوص التي كتبت في حب الجزائر، من أبرز النصوص الشعرية في المتن الشعري الجزائري، لأنها حملت الوطن هما وموضوعا ووسيلة للتعبير السياسي، وكانت دليلا على مشاركة الشعراء في التأريخ للأزمة التي حلت بالجزائر في فترة التسعينيات.

فالشاعر الأصيل المرتبط بشعبه وبقيمه السامية وتاريخه الناصع من واجبه المواكبة، لا الانغماس السياسي الفج، وتكرار ما هو واقع وترديد الشعارات وممارسة الخداع والكذب الشعري. لأن ما يبقى هو هذا الشعر الذي يكشف ويفضح الممارسات المشبوهة، والظلم المسلط على رقاب المغلوبين على أنفسهم، في شكل شعري يراعى فيه جماليات الشعر، وأداء رسالته. مع إبراز التاريخ الوطني، وتاريخ المكان/ الرمز، والتشبث بعقيدة الشعب .

1- المصدر نفسه . ص 75/77.

وصفوة القول إن الوطن يشكل ظاهرة عامة في شعرنا العربي القديم والحديث والمعاصر، من المشرق العربي إلى المغرب العربي. وقد زادت حدة الاهتمام به مع الهجرات الجديدة وانتقال بعض الشعراء العرب للعيش في البلدان الأوروبية والأمريكية، وظهور حركات التحرر، والحركات القومية في البلدان العربية، وتحرر الكثير من الشعراء من السلطة السياسية الحاكمة.

وقد تعددت دلالات الوطن في النص الشعري، وهذا التعدد ناتج عن اختلاف التوجهات الفكرية والرؤى السياسية للشعراء، إذ يستحيل أن ينتج النص دون ظلال وهذه الظلال لا محالة واقعة في النص الشعري سواء أظهرت للقارئ أم خفيت.